التركيب البنيوى للعنف :
خواطر نظرية في المقاومة الفلسطينية

الدكتور اميل نخله

كتب الكثير في ظهور حركة المقاومة الفلسطينية(١) وتاثيرها خاصة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ على التطورات الراهنة والمقبلة في الشرق الاوسط. ولكن ما أقل ما كتب عن الاطار المفاهيمي للعنف الفلسطيني بالعلاقة مع المفاهيم التقليدية للنظرية السياسية : العدالة والشرعية والالتزام والمسؤولية الفرديين وبناء الجماعة السياسية واخيرا التفوق من خلال الابداع الفردي الحر . وبالطبع تبرز هنا بعض الاسئلة . هل استعمال العنف ، اي الكفاح المسلح ، وسيلة مبررة لتحقيق وجود فلسطيني مجتمعي ومؤسسي مشروع ادبيا ومعنويا واخلاقيا ؟ وهل يصح اعتبار استخدام القوة صحيحا اخلاقيا ومقبولا معنويا ، اذا كان ذلك بقصد احباط استمرار التعاسة والدمار ؟ وهل يجب الحفاظ على السلطة باي ثمن ؟ بكلمات اخرى ، متى يحق لشعب ، او للنخبة الممثلة لهذا الشعب بحكم الواقع ، أن يثور وبالعنف الذي تقتضيه الظروف للقضاء على حالة راهنة تمعية احدثت بالقوة وكرست بها ؟ واذا كان شعب كهذا يستطيع اشتراع حقه في استخدام العنف ، فمتى يكف هذا الاستخدام عن ان يكون شرعيا ؟ متى تكف الوسائل (استخدام العنف) عن أن تبرر الغايات (خلق بنية مجتمعية جديدة) ؟ وما هي الظروف المقيدة التي ينبغي ان يراقبها بوعي ويقبلها بمنهجية مستخدمو العنف المشروع ، اذا ما برهنت شرعية هذا العنف ؟

وعلى الرغم من ان عملية التحويل العنفية لا تفترض تخطيطا هيكليا مسبقا ولا تعمل بموجب مثل هذا التخطيط ، وذلك أمر يمكن تصوره ويجري التنبؤ به احيانا كثيرة ، الا أن من الضروري استعمال اطار نظري لضمان حد ادنى من الرؤيا الموضوعية خلال العملية العنفية ، خشية الوقوع في شرك القمع الدائري(٢) الذي كان يقصد في البداية تحطيمه باستخدام العنف . ويعطي هذا الاطار العملية العنفية احساسا بأنها هادفة ، فيعمل هذا ككابح داخلي للمحدودية العقائدية والجبرية الدوغمائية المتحجرة المقرة سلفا . تحاول حركة المقاومة الفلسطينية ، ممثلة أساسا بفتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ان تصيغ الان اجوبة كافية على بعض الاسئلة النظرية التي اثرناها اعلاه ، مما يجعل المرحلة الراهنة تشهد توترا ايديولوجيا بين فتح والجبهة الشعبية(٣). وقد تشكل هذه الاجوبة تأليفا نافعا ربما يبرر في النهاية استخدام العنف الذي ، بدونه ، لا يمكن ان يكون هذا التأليف .

لا غنى لفهم الكفاح العنيف للشعب الفلسطيني عن البحث في اربعة مجالات على الاقل في الوقت ذاته : دور النظرية ، كفاية العنف في النظرية السياسية، طبيعة المقاومة الفلسطينية ، الاطار البيئي للعنف الفلسطيني (الوجود الصهيوني) . ولربما يصبح ممكنا بتفحص هذه المجالات الاربعة تطوير تأليف انساني لا عنفي مؤسس بصلابة على القيم الاخلاقية الكلاسيكية التي يشترك الناس فيها جميعا .

لماذا النظرية ؟

على الرغم من أن السعي الى النظرية يبدو على